كتاب

المجموع في المحيط بالتكليف

لقاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد المعتزلي

المتوفى سنة ٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م

وهو من جمع الشيخ الإمام أبي محمد الحسن بن أحمد

ابن متويه علي بن عبد الله بن عطية

ابن محمد بن أحمد النجراني

المتوفى سنة ٤٦٩ هـ - ١٠٧٦ م

عني بتصحيحه ونشره

الأب جين يوسف هوبن اليسوعي

الجزء الأول

المطبعة الكاثوليكية - بيروت

جميع الحقوق محفوظة للمطبعة الكاثوليكية

السِّفر[1] الأول من المجموع في المحيط بالتكليف

لقاضي القضاة ابو الحسن عبد الجبّار بن احمد وهو من[2] جمع الشيخ الامام ابي محمد الحسن بن احمد بن متويه على بن عبد الله ابن عطبة بن محمد بن احمد النجراني[3].

---

١) ت ى : — السفر ؛ ر : الجز . — ٢) ر : — لقاضى القضاة ابو الحسن عبد الجبار بن احمد وهو من . — ٣) ر : — على بن عبدالله بن عطبة بن محمد بن احمد النجراني .

مقدّمة

في غمرة من القلق الذي ساور المتخصّصين بعلم الكلام الاسلامي وكفّهم عن التعمّق فيما نشأ من المسائل ، تبرز مشكلة فوق جميع المشاكل ،ألا وهي عدم الوضوح والجلاء عن هذا العلم . وكان من المحال مما لدينا من الموادّ أن نكوّن لنا رأياً واضحاً فيما يدلّ عليه الكلام حقاً في قراره . فكل شيء يظلّ مبهماً مرتبكاً فيما لو أردنا ألاّ نكتفي بالمعلومات العامّة عن وحدانية الله والانتخاب الخ... بل أن نفتش عن البراهين التي باستطاعتها أن تُحيي معتقد الاشعرية وخلفائها . وبياناً لما نريد ان نقول فلنأخذ مثلاً تعليم الأشعري عن ارادة الله أو عن روية الله في « الابانة » . فان هذا العرض لا يزال ناقصاً كل النقص ومرتبكا كلّ الارتباك ، كلما حاولنا ان نتعمق في تفهّم الأدلة عليه ولو كنّا ملحّين بالتعليم الرسمي عن هذه النقاط . وما قلناه عن الأشعري يمكنّا ان نطبّقه على اكثرية المؤلفين وخصوصاً على من عاشوا في اجيال الأشعرية الأولى . ولم ينجل الغموض الاّ بظهور الجويني والغزالي والايجي وغيرهم ممن يمكن بكل طمأنينة ان تدرج في مذهبهم معطيات المعتزلة لكونهم يجارون التعليم الرسمي . فهم ،بخلاف اسلافهم ، حاولوا أن يبحثوا في الالهيات لا في الجدليات فقط ضد خصومهم المعتزلة والحنابلة . هذا الروح الجدلي المتواصل هو ما جعل الاشعرية قبل كل شيء ردّة فعل حارة متواصلة حتى انها لم تستطع ان تجد روحها اللاهوتية الخاصّة. فهي لم تصبح لاهوتاً في ذاتيه الاّ بعد اجيال ، عندما زال خطر المعتزلة ولم يبقَ للحنبلية المتطرفة ما كان لها من القوة الاولى . فردّة الفعل تلك وهذه المقاومة المتواصلة هي التي حرمته السلطة الهادئة على نفسه وكان من الواجب أن يحصل عليها كمدرسة للاتّزان العقائدي .

وهناك عامل ثان اعجز المتخصّصين بالكلام واتعبهم ،إلاّ أنه من جهة أخرى يدعو إلى الإعجاب بأولئك المؤلفين مثل غرديت وقنواتي وجولدزيهر وتريتون ومونجمري وات وارنلدز وهورتين والبر نادر وغيرهم ممن حاولوا القيام بعمل لا طائل تحته . هذا العامل

الآخر هو انه لم يترك لنا وسيلة للحكم على موقف الخصوم الأولين الحقيقي وعلى مزاياهم الخاصّة . فمعلوماتنا عن الحنابلة أوفى كثيراً بما نجده في مؤلفات السيد لاوست الممتازة . ولكن ما لدينا عن المعتزلة ؟ فنحن لا نعرفهم الاّ باعتراضات معلمي وشارحي العقيدة الصحيحة الذين حاولوا ان يدحضوهم . فالشعور بالنقص وعدم الرضى متأتٍ من أنه ليس لدينا دراسة رسمية عن المعتزلة الصحيحة وانه يلزمنا ان نكتفي بالمراجع فقط وهي مراجع كثيرة نقلها الخصم كما امكننا ان نتحققه بامانة من مؤلفات لا تحصى لكتاب معتزليين . والكتب التي تعدّد مذاهب المعتزلة مذهلة في ذاتها وخصوصاً لأن معظم ما كُتب كتبه خصومهم «كمقالات الإسلاميين» للاشعري و «الفرق بين الفرق» للبغدادي و «كتاب النحل» لابن حزم ، ولكنها أبعد من أن تولينا هذا الرضى الذي لا يمكن بدونه لدرس الكلام أن يثير اهتمامنا طويلاً . فنحن في حاجة إلى ان نرى الخصم ونسمعه ، ولا نكتفي بنصوص منقولة خالية من روحه بل نطلب نصوصاً مكسوّة ومزدانة بأنفاسهم .

انما لهذا الموقف الذي كان لا يحمل على الأمل ، مخرج هو الآن في طريق التحقيق . لقد عرفنا من زمان طويل «كتاب الانتصار» للخيّاط وقد أعيد طبعه حديثاً مع ترجمة فرنسية لالبر نادر في «ابحاث معهد الآداب الشرقية في بيروت» مجلد ٦ ١٩٥٧ . لكنه ، رغم اهمّيته ككتاب ردود ، لا يبيّن لنا طريقة المعتزلة وادلتهم اللاهوتيّة. إلاّ أن ما يبشر بمستقبل جديد لدرس الكلام هو اكتشاف غير منتظر لكتب المعتزلة اطلعت به البعثة العلمية لمعهد المخطوطات في الجامعة العربية . واغنى مركزين الآن لمصادر المعتزلة هما المكتبة الامبروزيوسية في ميلان التي تمكّنت في سنة ١٩٤٠ من الحصول على ١٦١٠ مخطوطات وردت اليها من اليمن والمجموعة الحديثة التي اكتشفتها بعثة الجامعة العربية ، وهي الآن تحت الفحص والدرس . والبعثة التي ارسلت الى اليمن تحت اشراف السيد خليل نامي ومعاونة السيد فؤاد رئيس قسم المخطوطات بدار الكتب المصرية استطاعت ان تطّلع على مكتبات كثيرة عامّة وخاصّة تشتمل على آلاف من المخطوطات ، كما استطاعت ان تصور عدداً منها بالمكروفيلم . إن الحصاد وإن لم يصفّ تماماً فهو يبشر بغنى لم يكن متوقعاً ولا سيما من كتابات المعتزلة تلك المؤلفات التي ينبغي أن نقف على سرّها لنبلغ الى معرفة الكلام حسب قيمه الحقيقية [1] .

---

١) فيما يخصّ بعثة اليمن راجع ك. ى. نامي : «البعثة المصرية لتصوير المخطوطات العربية في بلاد اليمن» القاهرة ١٩٥٢ ، وفؤاد السيّد : «مخطوطات اليمن» في مجلة معهد المخطوطات العربية ١ (١٩٥٥) ، ص ١٩٤–٢١٥ . فهذان المؤلفان يصفان اهم لمخطوطات المعتزلة في اليمن .

لكن هذه المؤلفات ليست لأقدم مؤلفي المعتزلة «كالنظّام» و«أبي الهذيل» ، بل لمن خلفهم من كتاب عهد المعتزلة . فهم انضج من وصل الينا ممن كتب من المعتزلة ومنهم القاضي الكبير عبدالجبّار المتوفى في ٤١٥/١٠٢٤ هـ . فان اكتشاف بعض مؤلفاته سيفتح لنا آفاقاً واسعة كانت لا تزال حتى الآن مغلقة دوننا .

واعظم ما في هذه المكتشفات كتاب «المغني» وهو دائرة معارف المعتزلة لعبد الجبّار في ستة عشر مجلداً . يمكن الاطلاع على وصف لها في مزيج (Mélanges) معهد الدروس الشرقية للدومنكان في القاهرة مجلد ٤ (١٩٥٧) ص ٢٨١–٣١٦ ، ومجلد ٥ (١٩٥٨) ص ٤١٧–٤٢٤ . وهو اكتشاف يفتح مجالا جديداً واسعاً للدراسات العميقة . والمجلّدان المنشوران حتى الآن من «المغني» : «خلق القرآن» و «اعجاز القرآن» يدلاّن صراحة على سمتهما العلمية وغناهما اللاهوتي.

وُجدت مع «المغني» نسخة من تأليف لاهوتي لعبدالجبّار «مجموع في المحيط بالتكليف» في اربعة مجلّدات ولم يكن لدينا منها حتى الآن الاّ المجلّد الاول :

١ – في مخطوط (Orientalische Abteilung der deutschen Staatsbibliothek Glaser 52, Ahlwardt Katalog 5149).

وهو جزء من مجموعة اد. چلازر احضرها من اليمن في إحدى رحلاته العلمية في ١٨٨٣ – ١٨٨٤ و١٨٨٥ – ١٨٨٦ ومحفوظ الآن في (Das Depot der ehemaligen Preussischen Staatsbibliothek in der Universitätsbibliothek Tübingen).

٢ – وفي مخطوط ذكره قبلاً ريتير (*Der Islam*, XVIII p. 42.) وهو موجود في مكتبة تيمور باشا وانتقل بعد ذلك الى دار الكتب في القاهرة .

٣ – وفي مخطوط وجد في وقف كايتاني (Caetani) في مكتبة مجمع لينشيه (Académie des Lincei) ٢٠ في روما وصدر من اليمن ايضا .

ونحن ننشر هنا الجزء الاول من هذا التأليف . امّا كون المجموع قائماً على اربعة مجلّدات فلم نعلم به الاّ من الاكتشاف اليمني لان المجلّد الاوّل من مخطوط توبينچن لا يذكر عدد المجلدات بل يأتي بهذه الخلاصة : «تم الكتاب وهو الجزء الاوّل من كتاب المحيط» ، وهي خلاصة غير موجودة في المخطوطين الاخرين في القاهرة واليمن .

إنّ كتاب المحيط «كالمغني» كُتب إملاءً ، ونسخه «ابن متويه» كما ورد في المجلدات الاربعة : «وهو من جمع الشيخ أبي محمد الحسن بن احمد بن متويه» المتوفى في ٤٦٩ هـ – ١٠٧٦ م. ، وذلك بعد خمسين سنة من وفاة المعلم الأكبر نفسه .

إنّ ما نالنا من السرور في دراسة هذا النص نرجو ان يشاركنا فيه كلّ من يطلعون عليه . فهنا لا صراع متواصل مع الخصوم للتغلّب عليهم بل جـــدل ردّي بين اصحاب من مدرسة واحدة وإخوان ذوي روح واحدة من أشهر رجال المعتزلة . فنحن وان لم تكن لدينا تآليف اعاظم معلمي المعتزلة من الرعيل الاوّل فان اسماءهم وآراءهم موجودة هنا : « كالنظّام » و « ابي هاشم » وابيه « ابي علي » (الجبّائي) و « ابي اسحق » وغيرهم .

واذا تأملنا فهرست الفصول في هذا المجلّد الاول من « المحيط » وقابلناه بفهرست « المغني » الكبير المنشور في (*MIDEO*) ٤ (١٩٥٧) ملنا الى الاعتقاد أن كثيراً مما في « المجموع » هو نسخة او موجز عن « المغني » . ولكن لا شيء من ذلك . فقد أتيح لنا ان درسنا المجلدين الاولين المنشورين حتى الآن من « المغني » فتبيّن لنا من ذلك ان المواضيع التي عولجت فيهما وان تكن هي نفسها وآراء المؤلف التي وردت وان ظلت هي نفسها ، غير ان طريقة معالجتها قد لا تكون دائماً صريحة وتقليدية ولا مدعومة ولا كاملة كما هي في « المغني » . وقد اتّخذ المؤلف من الحرية والاستقلال ما يوجب مراجعة النصّين لتتميم « المغني » ما دام الكل في « المجموع » معتبراً من التكليف . ونحن وان وُجدت مراجعات لا نظنها محتملة في المؤلفين الآخرين اللذين لم نستطع مقابلتهما ، فقد بدا لنا من الصواب ان نقوم بهذه المخاطرة لأن كل مؤلّف معتزلي ، شأن أي مؤلّف آخر كُتب بهذا الروح الناضج الرزين كروح عبد الجبّار ، لا يمكن الاّ أن يكون نافعاً ومفيداً جداً .

إن نشر مخطوطات المعتزلة الصحيحة لضروري . فان العلماء اليوم يفتّشون في الاسلام عن مبادئ ترتكز اليها معرفة الإنسان . وهذه المعرفة ستفسح توجيهاً جديداً نابعاً من معطيات اسلامية صرف . ولهذه المعرفة ستكون العقيدة المعتزلية سنداً وقوّة . ومثلاً على ذلك ما نجده في الجزء الاوّل في الصفحة ٣٩٣ فيما يتعلق بغير المؤمنين :

« والزمناهم ان يجب الصبر على الكفر وغيره ويقبح الجزع عليه كما ثبت مثله في الامراض والمصايب لانهما جميعاً من خلقه تعالى للضرر به من دون ان يكون لواحد منهما عاقبة تقع بل فعله لان الملك ملكه او يكون الغرض في احدهما امكان الاستدلال به عليه فهذا قايم في الاخر . ويلزمهم ان يكون الكافر من حيث لا يقدر معذوراً لان العذر في ان لا يقدر المر على فعل من الافعال ابين من العذر من ان لا يعلم » .

إنّ عنوان الكتاب نفسه عرضة للتغيير : « الكتاب المجموع في المحيط بالتكليف » وهو العنوان المستعمل غالباً . وقد يُذكر بدون « بالتكليف » ؛ واضيف اليه في نسخة « دار الكتب » في القاهرة : « في العقائد » وهذه لم نجدها في موضع آخر . ولكنها تدل على ان الكتاب هو كتاب عقائدي حقاً .

والكتاب مقسم إلى اجزاء يشير اليها بالاول والثاني الخ . اما مخطوط القاهرة فيقول (ما عدا ١ ، ٢ ، ٣) السفر الاول ، السفر الخامس . ومما يلفت النظر ان هذا التقسيم اسفاراً هو كالمستقل عن موضوع البحث بنوع انّا نجده في اثناء مقال يتتابع في القسم التـــالي .

والمواضيع الكبرى التي تناولها البحث في هذا المجلّد هي : الكلام في التوحيد ؛ في الصفات ؛ في العدل ؛ في الافعال ؛ في الإرادة ؛ في القرآن ؛ في التولّد .

ومختلف الأقسام والاسفار مجزّأة الى ابواب والابواب الى فصول . وما يعرف في مخطوط توبينچن بالمجلد الاول (الجزء الاوّل) فانه يشتمل على الأسفار التسعة الاولى .

واليك وصف المخطوطات الاربعة التي اكتشفت :

مخطوط القاهرة (تيمور باشا وهو الآن في « دار الكتب ») ونشير اليه بحرف «ق» وهو الاقدم (ومخطوط اليمن لم نتمكن من تحقيق تاريخ نسخه) هو مؤرّخ في ١٨ رمضان ٦٨٣ هـ بيد الناسخ « علي بن عبد الله بن عطية النجراني » وخطه نسخي قديم وهو غالباً بدون تنقيط وأحياناً بدون تدقيق مع تصرّف بالنسج على هواه . وهو يشتمل على ٢٦٣ صفحة والصفحة ٢٧ سطراً والسطر بين ١٨ و٢٠ كلمة .

ومخطوط توبينچن ونشير اليه هنا بحرف «ت» مؤرّخ في ١٣ جمادى الثاني ٦٩١ هـ بيد ناسخه « محمد علي بن يوسف البطلمي » بالخط النسخي القديم . وهو أحياناً كثير النقط وأخرى قليلها حتى في الرزم الكلمات . وهو متقن بالاجمال لكن فيه مقاطع لا تقرأ . وبعض صفحاته الاولى (١ — ١٠) مفقود . وهو يحتوي على ٢٢٠ صفحـــة مزدوجة تشتمل الصفحة على ٢١ سطراً والسطر على ١٨ او ١٩ كلمة . والأرقام في آخرها غير واضحة . فبين صفحة ٢١٥ ظ و٢١٦و نجد الصفحات التالية بينما نجد الصفحات ٢١٥و و٢١٦ظ قبل الصفحة مقام الاخيرة ٢١٩و و٢٢٠ظ .

اما مخطوط اليمن الذي نشير اليه هنا بحرف «ي» فلم نجد له تاريخاً ولا اسماً لناسخه الاّ الكتابة الآتية على صفحة الاولى :